إيثار الأفعال بعضها على بعض في لغة القرآن الكريم دراسة دلالية

م.د. سعدون خلف عبد
قسم اللغة العربية / كلية التربية للبنات / جامعة الانبار

من مجالات البحث في كتاب الله تعالى لغته، التي كانت وما زالت شجرتها المباركة وارفة الظلال دانية الجَنى، أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، فكانت موضع عناية الدراسين ومعقد اهتمامهم، لما فيها من أسرار دقيقة وكنوز ثمينة لم يوقف على مثلها في أي نص مهما سما إلى أعلى مراتب الإبداع.

وقد افتتن بالقرآن الكريم فصحاء العرب، ووقفوا أمامه مبهورين، لذا نعتوه بشتى النعوت الخارجة عن نطاق قدرة البشر، وارادوا أول الأمر صرف الناس عنه، فتحداهم ان يأتوا بمثله، أو بعشر سور، أو بواحدة فعجزوا، وعندها أقام عليهم الحجة، وقال في ذلك كلمة الفصل: (قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) (١).

وحام حوله العلماء، ونظروا فيه، فألفوه وحدة متكاملة، وضعت فيه كل سورة بل كل آية بل كل لفظة بل كل حرف وضعاً فنياً مقصوداً، فهو كمال قال عنه الفخر الرازي: " كالسورة الواحدة لاتصال بعضه ببعض " (٢) بل هو كالآية الواحدة كمال قال (٣).

وإنك لتجد كل لفظة وضعت في مكانها المناسب لها، بحيث لا تستطيع أن تنزعها من مكانها وتضعها في مكان آخر، وفي هذا ذكر الجاحظ أن القرآن: " أورد كل لفظة في مكانها المناسب ببراعة مذهلة، والتزم الدقة في مراعاة دلالة الألفاظ، وإيرادها بطريقة تعجز عنها الخلائق "(٤)، ولا أدل على ذلك مما رواه أبو حيان النحوي من: " أن اعرابياً سمع قارئاً يقرأ قوله تعالى: (والسارق والسارقة فآقطعوا ايديهما جزاءاً بما كسبا نكالاً من الله) (٥)، وختمها بـ (والله غفور رحيم)، فقال الأعرابي: ما هذا كلام فصيح، فقيل له: ليست التلاوة كذلك، وإنما هي: (والله عزيز حكيم)، فقال الأعرابي: بخ بخ، عَزّ، فحكم، فقطع "(٦).

والعلماء عندما فسروا كتاب الله تعالى، لمسوا دقة هذه الألفاظ وعذوبتها، ووضعها في المكان المناسب لها، فراحوا يعللون اختيارها وإيثارها على غيرها بحسهم اللغوي وبثقافتهم الواسعة، ساعين إلى إظهار جمال التعبير القرآني في استعماله تلك الألفاظ.

ومن هنا كانت دراسة أيّة جزئية من جزئيات لغته، تُعد كشفاً عن سِمة من سمات إعجازه الذي حارت فيه العقول.

وإن هذا البحث يحال أن يسلط الضوء على نماذج من إيثار الأفعال بعضها على بعض.

فقد يؤثر القرآن الكريم فعلاً على فعل بحسب مقتضى الحال ـ وإن كاناً فيما يبدو مترادفين ـ وذلك ليؤدي المعنى المطلوب ضمن السياق الوارد. فقد يؤثر فعلاً على فعل لفظاً أو زماناً أو صيغة.

وإليك إيضاح ذلك:

١- إيثار فعل على فعل لفظاً:

يؤثر القرآن الكريم فعلاً على فعل من جهة اللفظ، ويظن غير المطلع على دقائق العربية أن الفعلين مترادفان، وليس الأمر كذلك، وإنما هناك فرق بينهما (٧)، إذ يؤثر القرآن لفظاً على لفظ لأنه هو اللائق بالمعنى

المطلوب، فمثلاً استعماله للفعلين (جاء وأتى)، فقد قال الراغب الأصفهاني مفرقاً بينهما: إنّ: " الإتيان مجيء بسهولة، ومنه قيل للسيل المار على وجهه (أتى) " (٨) "وإنّ " المجيء كالإتيان لكن المجيء أعم، لأن الإتيان مجيء بسهولة " (٩).

وقد ذكر الدكتور فاضل السامرائي – بعد استقصاء لهذين الفعلين ـ أن القرآن الكريم يستعمل (المجيء) لما فيه صعوبة ومشقة، أو لما هو أصعب وأشق مما يستعمل له (الإتيان) (١٠).

فسبحانه وتعالى يقول: ﴿ لقد جئتَ شيئاً إمراً﴾ (١١)، و ﴿ لقد جئتَ شيئاً نُكرا ﴾ (١٢)، و ﴿قالوا يا مريم لقد جئتِ شيئاً فرياً﴾(١٣) وقال: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إدّاً تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّاً ﴾ (١٤) و ﴿ فإذا جاء أمرنا وفار التنور ﴾ (١٥)، و ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ﴾ (١٦) و﴿ فإذا جاءت الطامة الكبرى ﴾ (١٧) و:﴿ فإذا جاءت الصّاخة يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه﴾ (١٨)، وهذا كله مما فيه صعوبة ومشقة.

ويتضح هذا الفرق جلياً بين الفعلين في الآيات المتشابهة، في نحو قوله تعالى: ﴿ جاءهم نصرنا﴾ (١٩) و﴿ أتاهم نصرنا ﴾ (٢٠)، فقد وردت الآية الأولى في قوله عز وجل: ﴿ حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنّهم قد كُذبوا جاءهم نصرنا فنُجّي من نشاء ولا يُرد بأسنا عن القوم المجرمين ﴾، ووردت الثانية في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ولقد كُذِّبت رسل من قبلك فصبروا على ما كُذِّبوا وأُوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾. فلِمَ آثر القرآن الكريم هذا اللفظ على ذاك؟

" من الواضح أن الحالة الأولى أشق وأصعب، وذلك أن الرسل بلغوا درجة الاستيئاس، وهو أبعد من اليأس وأبلغ، وذهب بهم الظن إلى أنهم كُذِبوا، إي أن الله سبحانه وتعالى كَذبَهم ولم يصدقهم فيما وعدهم به، [حاشاه تعالى]، وهذا أبلغ درجات اليأس وأبعدها، وعند ذاك جاءهم نصره سبحانه، فنُجّي من شاء وعوقب المجرمون. في حين ذكر في الآية الأخرى أنهم كُذِّبوا، أي كذّبهم الكافرون وأُوذوا فصبروا. وفرق بعيد بين الحالتين، فلقد يُكذَّب الرسل وأتباعهم ويؤذون، ولكن الوصول إلى درجة اليأس والظن بالله الظنون البعيدة أمر كبير.

ثم انظر إلى خاتمة الآيتين تر الفرق واضحاً، فما ذكره من نجاة للمؤمنين ونزول اليأس على الكافرين في آية يوسف، مما لا تجده في آية الأنعام، يدلك على الفرق بينهما". (٢١)

ومن هذا الإيثار – أعني إيثار فعل على فعل لفظاً – ما ورد في إيثار (صلّ) على (اشكر) في قوله عز وجل: ﴿ فصلِّ لربك وانحر﴾.(٢٢)

واللائق عند النعمة هو الشكر، فلِمَ آثر (صلِّ) على (اشكر).؟ الجواب على ذلك –كما ذكر الرازي–: " إنّ الشكر هو تعظيم، وهو اعتراف بالنعمة بالقلب وباللسان وبالعمل، والصلاة مشتملة على هذه المعاني وعلى ما هو أزيد منها، فالأمر بالصلاة هو أمر بالشكر وزيادة، لذا كان الأمر بالصلاة أحسن، ثم إنه تعالى لو قال: (فاشكر)، لأوهم ذلك أنه– صلى الله عليه وسلم– ما كان شاكراً، مع أنه من أول أمره كان عارفاً بربه مطيعاً له شاكراً لنعمه". (٢٣)

ويمكن أن يضاف إلى ذلك: أن إيثار لفظ (الصلاة)، لأنها أحب وسيلة إلى الله تعالى لمن أراد شكره، لا سيما أن بعض المفسرين فسر الصلاة بصلاة الفريضة، (٢٤) والله تعالى يقول في الحديث القدسي: (وما تقرب إليّ عبدي بأحب مما افترضت عليه)(٢٥) (٢٦).

ومن إيثار فعل على فعل لفظاً أيضاً، ما ورد في إيثار (نحشر) على (نسوق) في قوله تعالى: ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ﴾ (٢٧).

والسر في ذلك، أن لفظ (الحشر) فيه جمع من أماكن متفرقة وأقطار شاسعة على سبيل القهر، لذا جاءت لفظة (نحشر) مؤذنة بأنهم يحشرون إلى من يرحمهم، أما لفظ (السوق) ففيه إزعاج وهوان.(٢٨)وهذا غير لائق بالمتقين.

٢-إيثار فعل على فعل زماناً:

قسّم النحاة الفعل ثلاثة أقسام، ماضٍ، وهو ما دل على الزمن الماضي، ومضارع، وهو ما تضمن زمن الحاضر أو المستقبل، و أمر، وهو ما يدخل ضمن الدلالة على زمن المستقبل. (٢٩)

و نلاحظ أن مجيء الأفعال في السياق القرآني، كثيراً ما يخرج عن النمط المألوف للغة، من حيث التصرف في أزمنة الفعل، كالتعبير عن الحدث الماضي بالمضارع أو التعبير عن الحدث المستقبل بالزمن الماضي. فقد يرد في السياق ذكر الفعل المضارع، ثم ينكسر النسق السياقي بمجيء الماضي في السياق نفسه أو العكس، مما يدعو إلى التساؤل عن السر في ذلك العدول، ودلالته التعبيرية في السياق القرآني. (٣٠)

وتوقف علماء البلاغة عند هذا النوع من العدول، وعدوه ضرباً من البلاغة، قال ابن الأثير: "واعلم أيها المتوشح لمعرفة علم البيان، أن العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى، لا يكون إلاّ لنوع خصوصية اقتضت ذلك، وهو لا يتوخاه في كلامة إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة، الذي اطلع على أسرارها وفتش عن دفائنها، ولا نجد ذلك في كل كلام، فإنه من أشْكل ضروب علم البيان، وأدقّها فهماً وأغمضها طريقاً ". (٣١)

وإليك أمثلة من ذلك:

أ-إيثار المضارع على الماضي:

يرِد هذا النوع من الإيثار في الكتاب العزيز لاستحضار صور مغرقة في القدم، فيستدعيها من الماضي السحيق إلى الزمن الحاضر، وكأنها مشاهدة بارزة للعيان (٣٢)، وهذا ما أطلق عليه الزمخشري مصطلح حكاية الحال (٣٣).

من هذا قوله سبحانه مخاطباً اليهود: ﴿ أَ فَكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذّبتم وفريقاً تقتلون ﴾. (٣٤) فقد آثر التعبير الحكيم (تقتلون) على (قتلتم)، وكان مقتضى ظاهر السياق أن يقول:(ففريقاً كذبتم وفريقاً قتلتم)، لأن الكلام عن أمر حدث في الزمن الماضي، في حكاية تكذيب اليهود للأنبياء –عليهم السلام – وقتلهم إياهم، لكن السياق عدل عن الماضي إلى المضارع. والعلة في ذلك، أن قتل الأنبياء أمر فظيع، فأراد التعبير الحكيم استحضاره في النفوس، وتصويره في الخيال، لبيان شناعة فعلهم، ودلالة على استمرار القتل في حياتهم (٣٥).

وهذا السياق يشبهه سياق آخر في الحكاية نفسها، ولكنها تخص أحفاد أولئك القتلة، في قوله تعالى: ﴿وإذا قيل لهم آمِنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أُنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل فَلِمَ تقتلون أنبياء الله من قبل إنْ كنتم مؤمنين ﴾. (٣٦)

فالسياق في هذه الآية الكريمة، نسب جريمة القتل إلى الأحفاد، عندما خاطبهم بالفعل المضارع بقوله: ﴿فَلِمَ تقتلون أنبياء الله من قبل﴾، في حين أن القتل قد حصل في الزمن الماضي من الأجداد، وهذا من بلاغة السياق القرآني في إيثار هـ المضارع (تقتلون)، الذي أفاد استمرارية الحدث، كما أفاد حضور المشهد في الأذهان، إشارة إلى أن نزعة القتل والأجرام تسري في دماء الأحفاد كما سرت في دماء الأجداد، وفي ذلك إشارة أيضاً إلى أنهم ذرية سوء بعضها من بعض، وأنهم في الجرم سواء، فعلى أيّهم وضعت يدك فقد وضعتها على الجاني الأثيم، لأنهم لا ينفكون عن سنن أسلافهم والرضى عن أفاعيلهم والانطواء على مثل مقاصدهم. (٣٧)

ب - إيثار الماضي على المضارع:

ورد هذا الإيثار في مواضع كثيرة في القرآن الكريم، ومنه أن يعبر الذكر الحكيم بالمضارع عن حدث ما، ثم يردفه بالماضي، نحو قوله تعالى: ﴿والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة ﴾ (٣٨).

فمن الناحية النحوية نجد قسماً من النحاة يجيزون عطف الماضي على المضارع أو العكس، (٣٩) في حين نجد آخرين منهم يذهبون إلى تأويل الفعل الماضي بالمضارع،ليصح عطفه على ما قبله. (٤٠)

والمسألة ليست جواز ذلك العطف أو عدم جوازه، وإنما ورد التعبير القرآني على هذا النحو من المخالفة بين الفعلين في الزمان لدلالة مقصودة.

والتعبير بالفعل الماضي عن المستقبل هو أسلوب من البلاغة بمكان، وفي ذلك قال ابن الأثير: "والإخبار بالفعل الماضي عن المستقبل فائدته أن الفعل الماضي إذا أُخبر به عن الفعل المستقبل الذي لم يوجد بعد، كان ذلك أبلغ وآكد في تحقيق الفعل وإيجاده، لأن الفعل الماضي يعطي من المعنى أنه قد كان ووجد، وإنما يُفعل ذلك إذا كان الفعل المستقبل من الأشياء العظيمة التي يستعظم وجودها " (٤١)، نحو قوله سبحانه وتعالى: ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ (٤٢)، فهو لم يأتِ بعد، ولكن التعبير عنه بالماضي لتحقق وقوعه، بمعنى أنه وجب وثبت. ونحوه ما جاء في حكاية هود –عليه السلام– مع قومه في قوله تعالى: ﴿قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فاتنا بما تعدنا إنْ كنت من الصادقين قال قد وقع عليكم ﴾(٤٣) أي وجب وثبت العذاب. (٤٤)

ومن هذا القبيل قوله عز وجل: ﴿ويوم يُنفخ في الصور ففُزِع مَن في السماوات ومن في الأرض إلاّ من شاء الله وكلٌّ أتوه داخرين ﴾.(٤٥)

فقد آثر التعبير المعجز الفعل الماضي (فُزِع) على المضارع (يُفزع)، وكان مقتضى ظاهر السياق أن يجري على نسق واحد، أي (فيُفزَع) لأن الحدث لم يقع بعد، إذ إن الكلام عن المستقبل، وهو يوم القيامة، فدل العدول إلى الماضي على سرعة تحقق الفعل وحصوله، كأنه ماضٍ قد حدث وتحقق (٤٦)، وفيه مزيد من التأكيد لأمر البعث والنشور، ودلالة على الدهشة والذهول والسرعة في تحقق ذلك، بدلالة فاء التعقيب.

ومن بديع التعبير أيضاً في هذا الميدان، ما جاء في حكاية الوليد بن المغيرة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يحسب أنّ ماله أخلده ﴾ (٤٧) فقال: (أخلده) دون (يخلده) الذي يقتضيه ظاهر السياق، والسر في هذا، أنّ ذلك الإنسان حسب أن المال ضمن له الخلود وأعطاه الأمان من الموت في الحياة الدنيا، وكأنّ ذلك الحسبان حُكْمٌ قد فُرِغ منه، (٤٨) في نظر ذلك الإنسان القاصر.

ج - إيثار الأمر على الماضي أو على المضارع:

بما إن الفعل الماضي، أو المضارع يمثل جملة خبرية، وفعل الأمر يمثل جملة إنشائية طلبية، فهذا يعني أن التعبير القرآني، يؤثر الأسلوب الإنشائي على الأسلوب الخبري لغرض بلاغي، يستدعيه مقتضى الحال، فقد يؤثر التعبير القرآني فعل الأمر على الفعل الماضي ليدل على سرعة تحقق الحدث وحصوله، نحو قوله تعالى في بني إسرائيل: ﴿لقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ (٤٩) فالسياق القرآني في هذه الآية الكريمة يذكر أحداثاً في الزمن الماضي، ولكن ما الذي جعله يؤثر الأمر على الماضي في قوله: ﴿كونوا قردة خاسئين ﴾ بدلاً من (فجعلناهم قردة خاسئين) الذي يقتضيه ظاهر السياق؟ السر في هذا العدول – والله أعلم – "لأن في الأمر (كونوا) شداً للأنتباه بالتحول الحاصل في السياق، مما جعل الأمر مركزاً على بؤرة الحدث المهمة،وهي تحوّل ذواتهم إلى قردة خاسئين، وفيه دلالة على سرعة تحقق الحدث وحصوله، مستمِدّاً ذلك من قدرة الآمر عز وجل القائل للأشياء: ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ (٥٠)، وكأنّ المولى –عز وجل –قد أمر الحدث نفسه أن يكون فكان، فإذا بذواتهم قد انفعلت لهذا الأمر الإلهي على وجه السرعة، فانمحت معالم البشرية والإنسانية منهم، ليصبحوا مسخاً حقيقياً حاصلاً فيهم، ففي الأمر دلالة على قوة إيقاع الحدث وتحققه.... لأنّ الأمر يدل على شدة غضب الجبار عليهم، وصدور الأمر منه على وجه

السرعة والقوة والجبروت "(٥١)، وهذا المعنى لا يتحقق لو كان التعبير بالماضي على نحو: (فجعلناهم قردة خاسئين).

ويؤثر القرآن الكريم فعل الأمر على الماضي للحث على طلب الفعل، نحو قوله عز وجل: ﴿ قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون ﴾ (٥٢). فقد آثر فعل الأمر على الماضي فقال: (وأقيموا)، والظاهر أن يكون السياق على نمط واحد بأن يقول: (أمر ربي بالقسط وأمركم أن تقيموا وجوهكم) (٥٣)، ولكنّ التعبير على وفق هذا السياق يفوّت النكتة التي جاء العدول من أجلها، وهي أن العدول إلى الأمر يدل على طلب الفعل على سبيل الوجوب، ويحمل في طياته الزمن الحاضر والمستقبل، وأفاد المتلقين "عناية بتوكيده في نفوسهم، فإن الصلاة من أوكد فرائض الله على عباده " (٥٤).

وهذا العطف بين الإنشاء والخبر هو ما عُرف بعطف القصة على القصة، فالمعتمد هو مضمون الجمل لا الألفاظ، وحينئذ لا تُطلب المشاكلة بين الألفاظ وإنما تطلب المناسبة بين المعاني.(٥٥)

وقد يؤثر التعبير القرآني فعل الأمر على المضارع، لإظهار الفرق بين مدلولي الحدثين، نحو ما جاء في حكاية هود– عليه السلام – مع قومه في قوله تعالى: ﴿ قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إنّي أُشْهِدُ الله واشْهَدوا أنّي بريء مما تشركون ﴾ (٥٦)، فقد تضمن السياق عدولاً عن صيغة المضارع (أُشْهِد الله) إلى صيغة الأمر (اشْهَدوا)ولم يقل(أُشهِدكم)، والحكمة من ذلك، إبراز الفرق الشاسع بين الاشهاد ين، فأشهاده اللهَ ثابت وصحيح،لأنه متأتٍ عن اعتقاد ويقين، وإشهاده إيّاهم ليس اشهاداً حقيقياً، وإنما هو على سبيل السخرية والتهكم والتحدي لإرادتهم، (٥٧) لذا أتى به بصيغة الأمر، ليشير إلى الهوة الكبيرة بين الطرفين، طرف آمر وحقه أن يُطاع وهو هود– عليه السلام – وطرف آخر مأمور حقير الشأن وهم قومه (٥٨).

ففي هذا العدول دلالة واضحة على البراءة التامة بين الطرفين. وأبرز هذا العدول "مواقف الطرفين المتباعدين، عن طريق ذكر صيغة المضارع، التي توضح تشريف الطرف الأول وقوته وعظمته،ثم العدول عنها إلى صيغة الأمر الدالة على حقارة شأن الطرف الثاني وبطلان موقفهم الذليل ". (٥٩)

ثالثاً:. إيثار فعلٍ على فعل صيغة:

يؤثر التعبير القرآني فعلاً على فعل من جهة الصيغة، لأداء المعنى المطلوب،لأنّ "كل عدول عن صيغة إلى أخرى، لابد أن يصحبه عدول عن معنىً إلى معنىً آخر إلاّ إذا كان ذلك لغة." (٦٠) وفي هذا قال الزركشي: " واعلم أن اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان ثم نُقل إلى وزن آخر أعلى منه، فلا بدّ أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولاً، لأن الألفاظ أدلة المعاني، فإذا زيدت الألفاظ وجب زيادة المعنى ضرورة "(٦١).

ومن هذا مثلاً، إيثار صيغة (اِفْتَعلَ) على (فَعَلَ) في قوله عز وجل: ﴿لها ما كسبتْ وعليها ما اكتسبت﴾ (٦٢)، وسر العدول عن (كسبت) إلى (اكتسبت)، لأن السيئة لما كانت ثقيلة فيها تكلّف جيء بما يناسبها، وهو هذا الوزن الثقيل الشاق (٦٣).

ويؤثر التعبير القرآني أيضاً صيغة (فُعْلِلَ) على (فُعِلَ)،في نحو ما جاء في خبر أهل النار في قوله تعالى:﴿ فَكُبْكِبوا فِيهَا ﴾ (٦٤). وذلك ليتناسب هذا الوزن بما فيه من التكرير مع معنى (الكبّ)، إذ إنّ (الكَبْكَبة) هي تكرير الكب، فجُعل التكرير في اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى، كأنهم إذا أُلقوا في جهنم ينكبون فيها كبة بعد أخرى،حتى يستقروا في قعرها(٦٥)، أعاذنا الله منها.

ومن هذا أيضاً يُفهم إيثار التعبير القرآني صيغة (اثّاقل) (٦٦) . الدالة على المبالغة في الحدث . على (تثاقل) في قول أحكم الحاكمين: ﴿ يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم أنفروا في سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض ﴾ (٦٧)، لأنّ السرَّ في العدول عن (تثاقلتم) إلى (اثّاقلتم)،لكي يرسم القرآن الكريم للخيال صورة " ذلك الجسم المُثّاقل يرفعه الرافعون في جهد فيسقط في أيديهم في ثقل، ولو أنك قلت (تثاقلتم) لخف

الجرس، ولضاع الأثر المنشود، ولتوارت الصورة المطلوبة التي استقل برسمها هذا اللفظ، بجرسه الذي ألقاه في الأذن، وبظله الذي ألقاه في الخيال " (٦٨).

وثقل هذه الكلمة في نفسها، ينسجم مع المعنى الذي تؤديه على أتم وجه، وأكثره تصويراً في الخيال ووقعاً في النفس، مع الالتئام مع السياق والإيقاع، إذ لو تدبرنا ألفاظ القرآن الكريم في نظمها لألفينا حركاتها الصرفية واللغوية تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها، فيما هي له من أمر الفصاحة، ولن نجدها الآمؤتلفة مع أصوات الحروف مساوقة لها في النظم الموسيقي (٦٩)،لترسم في خيال المتلقي الصورة المطلوبة بأدق تفاصيلها، وذلك بحروف صاحبت بعض الكلمات، فعاد لها الوقع الخاص في النفس، بما لا تعطيه أو تفرّغه صيغةٌ أخرى مماثلة من التركيب (٧٠).

وهذه الدقة المحكمة في التعبير القرآني المعجز تتجلى لنا في قوله جلّت حكمته في وصف قرآنه الكريم: ﴿كتاب أُحكمت آياته ثم فصّلت من لدن حكيم خبير﴾ (٧١).

الهوامش

١–الأسراء: (٨٨).
٢–التفسير الكبير: فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، طهران: (٣٠ / ٢١٤ و ٣١٩).
٣–م.ن: (٣٢ / ١٠٤) وينظر: (٣ / ١٠٦).
٤–البيان والتبيين: الجاحظ، ت: عبدالسلام هارون، دار الفكر، بيروت، ط ١–١٩٧٤: (١ / ٢٠).
٥–المائدة: (٣٨).
٦–تفسير: البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي، دار الفكر، بيروت، ط٢–١٩٣٨: (٤٨٤/٣).
٧–ينظر في هذه المسألة كتاب: الفروق اللغوية: أبو هلال العسكري، نشر مكتبة القدسي، ١٣٥٣هـ.
٨–المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، ط، طهران:(٦)، وفنون الأفنان في عجائب القرآن: أبو الفرج بن علي الجوزي: ت: د: رشيد عبد الرحمن العبيدي، م، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٨:(٢٥٨)
٩–المفردات في غريب القران:(١٠٢).
١٠–ينظر: لمسات بيانية في نصوص من التنزيل: د: فاضل السامرائي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٩:(٧٤ – ٧٥).
١١–الكهف: (٧١).
١٢–الكهف: (٧٤).
١٣–مريم: (٢٧).
١٤–مريم: (٨٨ – ٩٠).
١٥–المؤمنون: (٢٧).
١٦–ق: (١٩).
١٧–النازعات: (٧٩).
١٨–عبس: (٣٣– ٣٤).
١٩–يوسف: (١١٠).
٢٠–الأنعام: (١٣٤).
٢١–مسات بيانية: (٧٤– ٧٥).

٢٢–الكوثر: (٢).
٢٣–التفسير الكبير: (٣٢/ ١٢٨ – ١٢٩).
٢٤–ينظر مثلاً تفسير: القرآن العظيم: ابن كثير، ت:د: محمد إبراهيم النبأ، مؤسسة علوان والمنار، بيروت، ط١– ١٩٩٨: (٤/ ٤٨٨).
٢٥–صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري: دار الجيل، بيروت: (٨/ ١٣١).
٢٦–ينظر: علل التعبير القرآني عند الرازي في التفسير الكبير، د: أحمد جمعة الهيتي: رسالة دكتوراه مخطوطة، جامعة بغداد، كلية الآداب، ١٩٩٩: (٦٧).
٢٧–مريم: (٨٥).
٢٨–البحر المحيط: (٢١٦/٦) وينظر: تفسير: الكشاف: جار الله الزمخشري، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٧: (٢/ ٥٢٤). وتفسير (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم): أبو السعود العمادي: دار المصحف، القاهرة: (٣/ ٣٩٣).
٢٩–أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة: د: فاضل مصطفى الساقي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٧: (٢٢٩).
٣٠–ينظر: الأعجاز البياني في العدول النحوي: السياقي في القرآن الكريم: د: عبدالله علي الهتاري، رسالة دكتوراه مخطوطة، جامعة اليرموك، كلية الآداب، الأردن، ٢٠٠٤: (٣٧– ٣٨).
٣١–المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر: ضياء الدين بن الأثير، ت: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار الرفاعي، الرياض،ط٢ – ١٩٨٣:(٢/ ١٩٣– ١٩٤).
٣٢–م. ن: (٢/ ١٩٤).
٣٣–ينظر الكشاف: (٣ / ٣٠١).
٣٤–البقرة: (٨٧).
٣٥–الكشاف: (٢٩٥/١) وينظر: التفسير الكبير: (٣/ ١٧٨).
٣٦–البقرة: (٩١).
٣٧–ينظر: النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن: د: محمد عبد الله درّاز، ت: محمد عبد الحميد الدخاخني، دار طيبة، الرياض، ١٩٩٧: (١٥٤).
٣٨–الأعراف: (١٧٠).
٣٩–ينظر: شرح الكافية في النحو: رضي الدين الأستراباذي، ت: د: عبدالعال سالم مكرم، عالم الكتب، القاهرة، ط١–٢٠٠٠: (٨٧/٣).
٤٠–ينظر التبيان في إعراب القرآن: أبو البقاء العكبري، ت: علي محمد البجاوي، م، عيسى البابي الحلبي، ١٩٧٥: (٩٩٣/٢):(٩٩٣/٢) و البحر المحيط: (٦/ ١٤٣) و (٥/٧) و همع الهوامع شرح جمع الجوامع: جلال ٤١–الدين السيوطي، ت: د: عبد العال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة،ط٢–١٩٨٧: (٥/ ٢٧١)، وحاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي: القاضي شهاب الدين الخفاجي، ت: عبد الرزاق المهدي، دار المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٩٧: (١٨٥/٦).
٤٢–المثل السائر: (٢/ ١٩٨) وينظر الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الأعجاز: يحيى بن حمزة العلوي، م / المقتطف، مصر: /١٩١٤ (٢ /١٤٠).
٤٣–النحل: (١).
٤٤–الأعراف: (٧٠– ٧١).
٤٥–ينظر: روح المعاني: (٨ / ١٥٨).

٤٦–النمل: (٨٧).
٤٧–ينظر: الكشاف: (١٦١/٣).
٤٨–الهمزة: (٣).
٤٩–ينظر التفسير الكبير: (٣٢/ ٩٣).
٥٠–البقرة: (٦٥).
٥١–يس: (٨٢).
٥٢–الإعجاز البياني في العدول النحوي: (٧٢)
٥٣–الأعراف: (٢٩).
٥٤–ينظر: الطراز: (٢/ ١٣٧).
٥٥–المثل السائر: (١٩٣/٢) وينظر الأعجاز البياني في العدول النحوي: (٧٢).
٥٦–ينظر: تفسير: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: أبو الثناء الألوسي، ط، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٧: (٢٠/٢٩): (٢٣/٢) وينظر: مسالك العطف بين الإنشاء والخبر: د: محمد توفيق سعد، م،الأمانة مصر، ١٩٩٣:(١٦٠)، والبلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري: محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢ – ١٩٨٨:(٥٣٣).
٥٧–هود: (٥٣–٥٤).
٥٨–ينظر الكشاف: (٢/ ٢٧٦).
٥٩–ينظر الأعجاز البياني في العدول النحوي: (٧٥).
٦٠–تحولات البنية في البلاغية العربية، د: أسامة البحيري، دار الحضارة، مصر، ط١ – ٢٠٠٠: (٣٢٦).
٦١–معاني الأبنية في العربية: د: فاضل السامرائي، ط١–١٩٨١، جامعة بغداد: (٧).
٦٢–البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، (٤٣/٣).
٦٣–البقرة: (١٢٦).
٦٤–ينظر: البرهان في علوم القرآن: (٣ / ٤٣).
٦٥–الشعراء: (٩٤).
٦٦–الكشاف (٣/ ٢٣٥)، وينظر: البرهان في علوم القرآن:(١٥/٣).
وذلك بابدال التاء ثاءً وادغامه في الثاء الثانية، واجتلاب همزة الوصل للتوصل الى الإبتداء بالساكنة.
٦٧–التوبة: (٣٨).
٦٨–التصوير الفني في القرآن:سيد قطب، دار المعارف، مصر، ١٩٥٩: (٧٨)، وينظر: في ظلال القرآن: سيد قطب، دار احياء التراث العربي، بيروت، ط٧، ١٩٧١: (٢٢٣/٤).
٦٩–ينظر: إعجاز القرآن و البلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي، م: الاستقامة، القاهرة، ١٩٥٦: (٢٢٧).
٧٠–الصورة الفنية في المثل القرآني، د: محمد حسين علي الصغير: دار الرشيد، بغداد: ١٩٨١: (٢٣٨) وينظر: علل التعبير القرآني عند الرازي: (٧١).
٧١–هود: (١).